قضايا الرواية النِسائية العربية و خلفيات التَشكل

حميـدة قـادوم و وردة معلـــم
جامعة باجي مختار – عنابـة (الجزائر)
جامعة 8 ماي 1945 – قالمة (الجزائر)

الملخّص:

شهدت المدوّنة السردية العربية الحديثة والمعاصرة، ظهور لون جديد في مسار الكتابة الروائية، مثّلته المرأة، وهو ما اصطلح على تسميته بـ (الرواية النسائية) التي سجّلت إقبالا واسعا تاليفا، وقراءة، ونقدا، نظرا لما يحمله هذا الخطاب الجديد من قضايا تمس المرأة العربية، وعلاقاتها الاجتماعية، ومواقفها، وحريتها العقدية، والفكرية في عالم تهيمن عليه السلطة الأبوية الذكورية منذ الأزل.

وتمثل هذه الدِّراسة محاولة للكشف عن حقيقة هذا الخطاب، وما يكتنزه من خصائص تجعله يحقق الرِّيادة والتَّميز، كاشفة عن أبرز القضايا التي هيمنت على المشهد الروائي النِّسائي العربي.

الكلمات المفتاحية: الكتابة النسائية- السلطة الأبوية- النَّسق الثقافي.

Résumé:

L'écriture narrative moderne et contemporaine a connu la naissance d'un nouveau type d'écriture romantique. Ce dernier a été représenté par la femme et renommé le roman féminine et qui a pu avoir un large public de lecteurs, écrivains et critique, pourvu les problématique abordée dans ses textes, qui sont en majorité les problème d'une société dominée par l'autorité masculine et paternelle depuis les nuits des temps .Cette étude a pour but de dévaloir ce discours, de connaitre les caractéristique qui l'aident à être pionnier et spécial. Ainsi que de révéler les problèmes qui ont prédomine la xénie romantique féminine dans le monde arabe.

Mots clefs: L'écriture féminine, L'autorité paternelle, L'échevelons culturel.

Abstract:

Modern and contemporary narrative discourse has witnessed the birth of a new type of a narrative writing that was termed "Feminist novel" .This type of narrative had a large public of readers, writers and critics owing to its issues that deals with Arabic woman in her social relationships, her attitudes and her religious and intellectual freedom in a world

dominated is an attempts to reveal some secrets and certain particular characteristics that makes this Feminist Narrative discourse a leading and distinct model in literature. It also treats the most important issues that have dominated the Arabic Feminist Narrative scene.

Keywords : Women's writing -Patriarchal authority -Cultural theme.

1 –إشكالية المصطلح:

بدأ الحديث عن الكتابة النِّسائية بشكل لافت منذ ستينيات القرن العشرين، وقد كان حديثا مصاحبا لحركات تحرير المرأة في الغرب، وانتقل بعدها إلى الوطن العربي" ورغم أن عمر الحركة النِّسائية العربية يناهز قرنا من الزمن أو يزيد، فإنَّ حركيتها كانت متعثرة بسبب تلك الخطابات التي كانت تشدُّها إلى الخلف، ففي الوقت الذي كان فيه العالم مشغولا بقضايا استراتيجية كبرى تتجاوز قضايا تعليم المرأة أو الخروج إلى العمل والمشاركة في القرارات السياسية... كانت مكوِّنات المجتمع العربي منشغلة بمدى كفاءة المرأة وقدرتها على تقلُّد مناصب القرار".[1] وقد لاقى (مصطلح النِّسائية) رواجًا كبيرا خاصة في مجال السَّرديات، إذ تعددت بشأنه المفاهيم وتباينت الآراء، فميّز كثير من النُّقاد والدَّارسين بين لفظتي النِّسائية والنِّسوية، وفي هذا يقول أحد الباحثين: "الخطاب النِّسائي يدل على الأعمال والكتابات التي يبدعها الرجال والنِّساء معا، وتقف مع المرأة وتعالج قضاياها وأحوالها وتاريخها وسبل تحرُّرها، أما الخطاب النِّسوي فيدل على الأعمال الإبداعية التي تنجزها النِّساء فقط."[2] فهو يُدخل إبداعات الرجال إلى جانب ما تكتبه المرأة ما دام يعالج قضاياها وأحوالها وتاريخها... في حين ترى باحثة أخرى أنَّ إطلاق مصطلح الكتابة النِّسائية ناتج عن اتهام إبداعات المرأة بالدُّونية وتحقيرها، فقد " ظهرت تحت هذا التَّصنيف النّوعي الجنسي عدّة تسميات في

الغرب والشرق على السَّواء، وهي أقرب إلى الموقف السلبي تجاه كتابة المرأة"[3].

لذلك رفضت بعض الكاتبات نعت أدبهن بهذا المصطلح، وقد حاولت دارسة أخرى وضع مفهوم شامل للأدب النِّسائي قائلة: "أميل إلى الاعتقاد بأنَّ مصطلح الأدب النِّسائي يفيد معنى الاهتمام وإعادة الاعتبار إلى نتاج المرأة العربية الأدبي، وليس عن مفهوم ثنائي أنثوي–ذكوري، يضع هذا النِّتاج في علاقة اختلاف ضِّدي– تناقضي، مع نتاج الرَّجل الأدبي".[4] لأنَّ الكتابة إرث مشترك بين الرجل والمرأة على السَّواء، وطبيعة المواضيع التي يتناولها كل منهما هي الفاصل الذي يجعل الأدب يتَّخذ سمات نسائية أو رجالية، ولاشكَّ أنَّ ولوج المرأة عالم الكتابة الرِّوائية يرجع إلى رغبتها في إضاءة المناطق العتمة من حياتها داخل مجتمع بطريركي متسلط. فظهرت أسماء لامعة لمبدعات من مختلف أقطار الوطن العربي أمثال: زهور ونيسي، وأحلام مستغانمي، وفاطمة الراوي، وخناثة بنونة، وعروسية النالوتي، وزهور كرام، وأخريات... مثَّلت كتابتهن " قفزة نوعية في ميدان الأدب نظرا لوجود ساردة بالنَّص النِّسائي في حالة تمرد على الوعي الذكوري، ترفض وتطالب وتُصَحِحْ..."[5] وهكذا ظلَّ مصطلح (الكتابة النِّسائية) يتأرجح بين الرفض والقبول لدى البعض، وظهرت إلى جانب ذلك مصطلحات مثل، أدب الرفض، وأدب ربَّات الخدور، وأدب الأظافر الطويلة، والأدب الأنثوي، وغيرها...

قام البعض الآخر بتجاوز إشكالية المصطلح إلى إشكالية المتن، وما جاء فيها من قضايا اجتماعية وفكرية وثقافية والتي منها:

1- خصوصية الكتابة النِّسائية:

لعلَّ أول ما أثارته الكاتبة العربية من خلال المتن الروائي، وأهم قضية حظيت باهتمامها، هي قضية الخصوصية والتميُّز، إذ تحاول الكاتبة إثبات قدرتها على صياغة خطاب سردي خاص، في مقابل ما يكتبه الرجل، لرَّد الزَّعم القائل بضعفها وفقرها اللُّغوي، فتتخذ من الكتابة وسيلة للتَّحرر، وإثبات ذاتها في مجتمع سيطرت عليه سلطة النسق الذكوري الذي يحكم العالم العربي، فالكتابة النِّسائية" تبحث عن شكل نظري تطبيقي في بنى تسعى إلى إيجاد صيغ كتابة تكون فيه المرأة إنسانا يتشكل في أُطر إنسانية ترفض العبودية وعيًا وتطبيقًا".(6) وتعدُّ الرواية المجال الرّحب الذي مارست من خلاله المرأة حريتها وأحلامها وأفكارها، بعدما كانت مهمَّشة تبعا للنَّسق الذي استفحل في الثقافة العربية، حيث ظلَّ الحديث عن ولوج المرأة عالم الكتابة يستحضر صورة المرأة الخطيئة؛ لأنَّ "التاريخ الذكوري يُورع فيها القناعة وعدم قدرتها على الابتكار... والذَّكر يسعى إلى الحرِّية من خلال تسييج حرِّية المرأة، وإلى فرض كتابته ككتابة عبقرية مُطْلَقَة يستحيل أن تضاهيها كتابة المرأة، فإنَّ الأمر يتعلق بصراع قوي وبمسألة حرِّية".(7)

تجد المرأة الكاتبة في فعل الكتابة متنفسا، ومساحة لممارسة حرِّية تتحوَّل عبرها من امرأة مفعول بها إلى امرأة فاعلة، وتنتقل خلالها من عالم الصمت إلى عالم البوح، ومن الكلام إلى تفجير شروخات جسدها وتموجاته، وهذا ما جعل من النَّص النِّسائي، نصًّا متفردًا ومتميزًا، فإفصاح المرأة، وتفجيرها لحقائق لا يعرفها غيرها، تلك الحقائق التي ظلَّت قابعة في أركان نفسيتها التي عانت الكبت والتَّهميش، جعلت انطلاقها بفعل الكتابة يتَّخذُ خصوصية واندفاعية تصف من خلالها مكنونات ذاتها الأنثوية بذاتية ظاهرة "فاشتغلت

من خلال ذاتها على كل ما له علاقة بالتَّهميش، والتَّغييب، والمسكوت عنه، بما في ذلك الأحاسيس والمشاعر، والأمكنة والفضاءات بحثا عن معاني جديدة، وأخرى قديمة تنفض غبار الأزمنة لتعيد صياغتها وفق معايير الكتابة التي تريدها".[8] وهذا ما جعل كتابتها تتميز بغنى شعوري مكثَّف، فكانت جسرًا يمتد بينها وبين قضايا وجودها في مجتمع ذكوري، وقد كان للنَّسق الثقافي دور بارز في اختلاف كتابة المرأة عن كتابة الرجل "وهو اختلاف نابع من اعتبار أنَّ الذَّات المبدعة تتموضع – وهي ترصد وتكتب– داخل النَّسق الثقافي العام، وبالتالي فكتاباتها تتكوَّن بكل هذه الإرهاصات المشحونة بالتراتبية، والأولويات، والإلغاء والإقصاء، والتأجيل، والأسبقيات..."[9] وهذا ما يؤكد خصوصية ما تكتبه المرأة لأنّها الأقدر على وصف حقيقة وجودها في مجتمع تحكمه العادات والأعراف أكثر ممَّا تحكمه القوانين المدنية، فأنتجت هذه المؤشرات جميعها نصًّا مغايرا بلغة مغايرة، لغة تجنح إلى مزيد من الشعرية والعاطفة والمجازات، وهي لغة تحاول الكاتبة من خلالها إثبات قدرتها على الكتابة بحرِّية مثلها مثل الرجل، فكانت – بحق – لغة موحية، متدفّقة المعاني متسارعة الإيقاع كتسرعها لبلوغ المجد ونيل الحرِّية، فتميَّز خطابها "بحضور الوظيفة اللُّغوية في مسالك تعبيره، وما يستخدمه من سجلات اللُّغة ومستويات الكلام بغية تثمين التواصل بين الفرد والآخر، بين المرأة (الذَّات الكاتبة)، والآخر(الذَات المتلقية) رغبة من المرأة الكاتبة في التَّحاور مع الآخر في أفق الانعتاق من سجن العزلة".[10] وهذا ما جعل الباحثة (هويدا صالح) تعترف بخصوصية اللُّغة النِّسائية فهي –بالنسبة لها – "أوّل ما ميَّز كتابة المرأة، وحضور الأشكال التعبيرية كجروح حقيقية داخل النَّص الأدبي التي تتقيح به هذه النُّدوب ليخرج صديدها سائحًا أمام المتلقي".[11]

أسَّست المرأة الكاتبة –بهذه الخطوات الحذرة – خصوصيَّةً لما تكتبه، وبخطوات ثابتة كسرت احتكار الرجل للقلم، ولوسائل الكتابة، لتعيد كتابة تاريخها بقلمها "لتخطف القلم من بين يدي الرّجل ولتدخل إلى اللُّغة بوصفها كاتبة ومؤلفة، وبوصفها صوتا مستقلا وبوصفها (ذاتا) تنشئ وتبدع، ولمْ تعد مجرد موضوع لغوي أو رمز شعري أو أداة سردية، إنّها تجيءُ بوصفها (سيِّدة) وليست (جارية) وسلاحها في القلم وليس في لسانها".[12] إنَّ خصوصية ما تكتبه المرأة، وخصوصية لغتها السَّردية نابعة –كذلك– من طبيعة المواضيع التي خطَّتها بقلمها، متخذَّة من النَّسق الثقافي لبنة أساسية في نسج عوالمها الروائية، لذلك نجدها " تقوم باجتراح ما له علاقة بالمهمَّش والتفاصيل الكثيرة والدقيقة التي تنبثق من فضائها الخاص، الأمر الذي شكَّل خصوصية في استخدام اللُّغة التي تعتمد على الحكي والتجسيد، لتصبح كتاباتها حيوية ومتطورة وغنية، لأنّها تكتب غير متكئة على المرجعية الثقافية السلطوية".[13] وبهذا شكلَّت نصًّا خاصًا بها، وبقضايا هويتها الأنثوية، فكسرت الحواجز العرفية، ومارست بوحها بكل أريحية.

2– الكتابة بالجسد وممارسة البوح:

أثبتت الرواية النِّسائية العربية جرأتها في اجتراح مواضيع مسكوت عنها اجتماعيا، ومارست بوحها لها واعترافها بكل أريحية، ودون خوف من الرَّقيب الاجتماعي والديني "فأمسكت القلم وافتضت بكارة بياض الصفحة، امتطت صهوة الكتابة، ابتدأت الرحلة، تسلك إلى العراء لتمنح للحرف روحها وجسدها، أعلنت قصَّة عشقها بل مارست الحب أمام الملأ، بما أنَّ الكتابة تبيح لها الغبطة، والتحرر، والانطلاق نحو أفق مفتوح".[14] وخلقت لنَّصها لغة خاصة بها تفصح عن المناطق العتمة من حياتها، وانتقلت من الكتابة

باللَّفظ إلى الكتابة بالجسد. هذا الجسد الذي استخدمته وسيلة للغواية والإغراء، ومارست سلطتها من خلاله" ففيما ينعت هذا الجسد بكونه مدنس وقادر على كبح غرائزه، يتمثل في التصورات العامة للمجتمع كموضوع إغرائي مستمر البوح بمفاتنه عبر أشكال انفراجاته، كما يعتبر في نفس الوقت مقدسا، وينتهي بسمو مشاعر الأمومة، والاعتبار الذاتي".(15)

وهكذا ظلَّ الجسد يتأرجح بين المدنس والمقدس في المجتمع، كلّ يصنِّفه حسب فلسفته الخاصة، فهو مدنّس كلّما حاول أن يشبع شهوته كما شاءت له الطبيعة، ويتحوَّل إلى مقدس كلّما تمكَّن من كبح جماح غرائزه، وهو مقدّس في شكله الثابت، وفي إطاره الخارجي المحمَّل بقدسية الشعائر التي يؤديها أمام الملأ. وقد حاولت الكاتبة البحث في هذا المقدَّس الظاهر، تُرى كيف يتجلى في الخفاء؟ وهذا ما دفعها إلى ضرورة تعرية النَّص، وتعرية شخوصه لتكشف عن تلك المضمرات التي تتخفى خلف نظم اجتماعية، ودينية أقرَّها العرف، وباركتها التقاليد البالية، فوجدت أنّ الجسد وحده "يستيقظ كالجمرة في الكتابة النِّسائية يمدُّها بفاعلية التجسيم بوصفه كائنًا حسيًا مرئيًا موجودًا، تتذوّق طعم الأشياء من خلاله، ليتحوَّل بعد ذلك من الجسد إلى الإحساس بالأشياء والاندماج فيها، فهو عنصر محفِّز لإثارة الأحداث وتشغيل الذَّاكرة، باعتباره المرجعية التي تثبت الكينونة والوجود".(16)

ولعلَّ شعور المرأة بالاضطهاد والظُّلم هو ما جعلها تتبنى هذا التَّوجه، اعتقادا منها أنّ حريتها تبدأ بتحرير جسدها، وتعريته للآخر "وحين توفّر عند المرأة وعيا بذاتها الفردية وتقسيمها امتلكت قدرة على تأمل هذه الذَّات وتحليل أعماقها والتَّعبير عنها بجرأة، وهو ما صدم المجتمع لأنّها تقوم بتعريته من خلال تعرية ذاتها كشكل من أشكال المقاومة التي تقوم به لإخراج ذاتها من

دائرة التَّهميش التي حوصرت فيها منذ التاريخ القديم".[17] لتخبر عن قدرتها في تغيير مسار قرارات المجتمع والرجل، فكتبت بعض الروائيات نصوصًا جريئة خرقت من خلالها نظام الكتابة العام، وتناولت قضايا كانت –ولا تزال– تصنَّف ضمن لائحة الطابوهات؛ كتلك التي تُضيء المناطق العتمة في العلاقة بين الرّجل والمرأة، وبين المرأة والمجتمع، وكشفت عمَّا لا يجوز الكشف عنه، حتى اتّهمها النُّقاد والقرَّاء بأنَّ توظيفها الاعتراف والبوح؛ إنَّما كان من أجل جلب الانتباه والتشهير بشخص المبدعة، والحقيقةَ إنَّ "الجرأة في تناول الجسد الأنثوي في السَّرد، وفضح المسكوت عنه، وعدم ترك مساحات البياض التي يملؤها القارئ، سهّل الأمر للمغيَّب أنْ يصير حاضرا، وللصامت أنْ يصرخ عاليا ويخمش جدار هذا المسكوت عنه".[18]

وهكذا خاضت المرأة الكاتبة تجربة البوح لتثبت وجودها وكينونتها، فكانت نصوصها مزيجا بين السيرة الذاتية لحقيقة حياتها، وبين خيالها وأحلامها التي تسعى لتحقيقها، وهذا ما تؤكده الروائية والناقدة (وفاء مليح) في مقالها الموسوم بـــ" أنا أكتب إذن أنا موجودة" قائلة: "أعترف أنَّ بعضا من نصوصي الأولى هي جزء من ذاكرتي، من أحلامي، شذرات من سيرة ذاتية عرَّيت فيها الأنا، عرَّيت مواطن ضعفها، أعدت ترتيب فوضاها الدَّاخلية. تعمدّت أنْ أقتحم بها فحولة الكتابة وأجعل الآخر/ الرجل يصغي لحكاياتي وهو يشعر بتورطه في عملية الفضح التي مارستها"[19].

ويظهر بوح المرأة في الكتابة الإبداعية مجرد وسيلة لكسر نظام الفحولة، والانتقال من الكتابة باللُّغة إلى الكتابة بالجسد، حيث؛ يمثل هذا الأخير "مساحة لا متناهية لصياغة الرموز والكتابة سواء كان جسد امرأة أو رجل لأنَّ كل جسد يشَّكل نصًّا يتحدث إليه ويجاوره، يتخاصم معه، فالذَّات تعاني

من كونها لا تتطابق مع صورتها حتى كانت أكثر بهاءً وجمالًا والمرأة تكتسب بجسدها مالا يستطيع النِّظام الرمزي الذكوري تفكيكه أو قمعه".[20] وهذا ما دفع بالمرأة الكاتبة إلى " اقتحام الأدب المكشوف الذي يترك جسد النَّص ينفتح على أكثر اللَّحظات حميمية وارتباطا بالجسد دون أنْ تخرس صوته ليصبح كل ما يصدر عن الجسد عبارة عن صورة حيَّة تستدعي كل التَّفاصيل التي تكون أكثر عفوية والتحاما بنسيج النَّص دون مواربة أو استحياء من فعل في صميم السلوك الإنساني".[21] ويصبح الجسد مصدر إلهام للذَّات الكاتبة، وكبديل يرغب في التَّغيير من أجل الإنْصات لرغباته ولمنطقه، وتتولّد بذلك لغة جديدة مؤنثة تمثلها "تلك الهوية والخصوصية التي تبحث عنها المرأة منذ الأزل وباكتشاف هويتها وخصوصيتها تحقق الأنثى مصالحتها مع ذاتها وقبولها الاختلاف من منظور تكامل وغنى لا منظور انتقاص ودونية. يكسب المرأة ثقتها في ذاتها الكاتبة ويمنح قلمها جرأة أكثر واقتحاما أوسع ورؤية أكثر رحابة للحياة والعالم".[22] لذلك كان حضور الجسد في الكتابة النِّسائية أحد أهم العناصر المكوِّنة للنَّص ليس باعتباره مجموعة من التِّيمات اللُّغوية فحسب، بل باعتباره مجموعة من الدلالات الحيَّة التي تسهم في تفعيل النَّص وتحميله أبعادا تخييلية لا حصر لها، وبما إنّ النَّص "أحد الفضاءات التوليدية والتحويلية للجسد حتى حين لا يكون موضوعا مباشرا له، كان بمثابة مسكن تخييلي للجسد، فيه يتجسد ويحقق وجوده المتخيل".[23] وهكذا يتدخل الجسد في صياغة وتركيب ذلك العمل الإبداعي بأي شكل من الأشكال، كتصوير الحركات المزاجية، وطريقة المشي، وملامح الوجه كردة فعل معين ، وكل هذه الخطوات لا يمكن أن تتم بمعزل عن الجسد بما يحمله من دلالات، وإيحاءات، ويتدخل "بشكل مباشر في عملية إنتاج النَّص وكتابته، ويشكِّل المخزون الذَّاتي للذَّات المؤلفة التي

تثوي، بشكل أو بآخر، وراء النَّص، وينقل اللُّغة من التَّواصل الشَّفوي إلى صورتها المكتوبة، فهو بمعنى ما المنبثَق الضروري للنَّص".[24]

إنَّ الحديث عن حضور "تيمة الجسد" في النَّص الروائي، لا يعني الرواية النِّسائية فحسب، وإنمّا وجدنا له حضورا مكثفا في كتابات الرجال، غير إنَّ مستويات هذا التَّوظيف تختلف؛ فمساحة البوح عند المرأة نجدها أوسع منها عند الرجل، وقدرتها على تعرية َّالنَّص، وكشف المستور أكبر من غيرها لأنَّها تمتلك " من المجسمات الجنسية ما ينتشر في كل جسدها وهو ما تراه مختلفا عن اللُّغة الذكورية الممتدّة في متعة ذكورية واحدة، وخلف مثل هذا التوَّزع تنتشر المتعة، مساحتها الجسد، انطلاقاته، وانبعاثاته، وإشاراته، واستدعاءاته".[25] من هنا كانت حاجة النَّص الأنثوي لمثل هذه اللُّغة المكتظة المنتشرة حتى تتمكن الكاتبة من " تأسيس خطاب جديد يرفع من قيمة الذَّات، ويرد الاعتبار للجسد الأنثوي، في إطار التحوُّلات السوسيو-ثقافية التي يعرفها العالم العربي، وفي خضم هذه التحوُّلات ظهر تصوُّر نوعي يعزز الوعي الإبداعي بدور الجسد ومفهوم العلاقة به، وينزاح عن التصورات التقليدية التي تنظر إلى الكتابة بالجسد من منظور أخلاقي ضيق".[26]

3-التنديد بالعنف ضد المرأة:

يعدُّ موضوع العنف من المواضيع التي تصدى لها الباحثون على اختلاف توجهاتهم الفلسفية، والاجتماعية، والسياسية، والقانونية، وحتى الأدبية، ونظرا لما يحمله هذا المصطلح من تشعب، واضطراب، سعى الإنسان كثيرا لمحاولة مقاومة هذه الظاهرة التي ما تزال تهدد حياة الفرد؛ إن على مستوى الأسرة الواحدة، أو على مستوى المجتمع، حيث تعدَّدت أشكال العنف، وتنوعت بحسب الطريقة، والوسيلة التي يتِّم بها هذا الفعل الإجرامي. ولعلَّ

أبرز مظاهر العنف التي عرفها التاريخ البشري؛ هو العنف ضد المرأة الذي يعرَّف بأنَّه "فعل عنيف موجّه ضدَّ المرأة بالذَّات مدفوعٌ بعصبية جنسية ويؤدي إلى المعاناة سواء من النَّاحية الجسدية، كالإيذاء الجسدي والاعتداء الجنسي والاغتصاب، أو من النَّاحية المعنوية، كالعنف اللَّفظي والاجتماعي والنَّفسي والسياسي، بما في ذلك التَّهديد به أو استعمال أساليب غير مباشرة كالنبذ والتحقير والحرمان من الحقوق المدنية ومن الحرية والمساواة في الحياة العامة أو الخاصة".[27] إذ أثبت التاريخ البشري معاناة المرأة من مختلف أشكال العنف، فوُئِدَتْ وهي طفلة في المهد، وسُبِيتْ وهي صبية، وبِيْعَتْ في الأسواق كجارية لخدمة سيِّدها الرجل، وحرمت من كلّ حقوقها، ودنِّست، ونُبِذَتْ من قبل الفرد والمجتمع.

ويرجع انتشار مثل هذه الظواهر والأمراض الاجتماعية وتفشيها خاصة في المجتمعات العربية إلى طبيعة الثقافة السائدة؛ وهي ثقافة ذكورية أبوية بامتياز حيث أُطلق عليها حديثا مصطلح "الثقافة البطريركية" وتعني السلطة للرجل حيث "يكون هناك تسلط من نوع آخر هو التَّسلط التَّربوي القمعي من جهة الذكر، والخضوعي النكوصي من جهة الأنثى، إنَّ هذه الثنائية من التَّسلط، والخضوع تولّد صراعا، وتناشزا اجتماعيا، ونفسيا، إذ ينشأ الأطفال في وضعية من شأنها تضخيم الذكورة، وتبخيس الأنوثة، ويجعل من الأب يميل إلى التَّسلط على المرأة و العائلة، كما تجعل الولد الأكبر رجلا يميل إلى التَّسلط على إخوته وأخواته فهو يتسلط ويتحكم في أخته التي تكبره سنا..."[28] حتى ارتبط وجودها بالتدنيس، والحقارة، والخطيئة، فمنذ زمن بعيد لا شيء تغير في منظومة القيم الإنسانية سوى تغير وسائل القمع والعنف ضدها.

فتطالعنا بعض الأعمال الأدبية الحداثية، والمعاصرة، وهي تعالج قضايا المرأة في مقدمتها قضية العنف التي عجزت المؤتمرات، والملتقيات الدَّولية، والجمعيات النَّاشطة باسم حقوق المرأة، عن الحدّ من ممارسة العنف ضدها. فقررت المرأة المبدعة قاصة وروائية وشاعرة أن تتولى بنفسها قضية الدفاع عن وجودها، وهويتها، وكيانها، وجسدها المستهدف. فحاولت تصوير وضعها داخل المجتمع العربي باحثة عن آليات مقاومة هذه الظاهرة بالغة الخطورة، فوجدت نفسها أمام وضع آخر قد يحبط كل محاولاتها في النهوض بالمرأة العربية فكرا، وجسدا، وهوية. تنتشر– إلى جانب الثقافة البطريركية– ثقافة أكثر خطورة هي ثقافة العنف المتمثلة في" كل الممارسات الفعلية والخطابية، وكل القيم والصور والرموز التي تفضي إلى العنف و الدفاع عنه من قبل النساء أنفسهن، أو تفضي إلى تشجيع ضحاياه على الصمت عنه، وعدم اللجوء إلى سلطة القانون لفرض العقاب على المعتدي".[29] وكل ذلك كان يتمّ وفقا لنسق ثقافي يتحكم في المرأة من داخل مجتمعها الذي تنتمي إليه، ومن داخل الأسرة التي ولدت فيها، وتلقت كل تقاليدها حرفيا دون مناقشة أو تفسير. بحيث؛ توهمها تلك الأنساق أن السكوت عن المعتدي المتمثل في بعض علاقات القرابة كالأب، والأخ، والزوج، هو رد الفعل الطبيعي لكل امرأة، متناسية بذلك التصرف أنَّها تتنازل عن حقِّها في العيش بكرامة كما أراد لها الخالق، وهذا ما زاد في صعوبة التعامل مع هذا النَّسق وأحبط كل محاولة لتوعيتها.

لذلك نجد أن الدِّراسات المهتمة بهذا الموضوع على كثرتها، لم تستطع التَّوصل إلى إجراء عملي يضمن حقوق المرأة، ويحفظ كرامتها من مختلف الممارسات الإجرامية التي تتعرض لها، لأنَّ " ثقافة العنف ضدَّ النِّساء هي

التي تجعل الناس يعتقدون أنَّ العنف ليس عنفا، وهي التي تسمي العنف بأسماء أخرى هي حماية المرأة وتهذيبها أو الدفاع عن الشرف والعرض والخصوصيات الثقافية (...) فثقافة العنف هي التي تجعل النساء والرجال لا يعتبرون العنف عنفا، وهي التي تنتج احتقارا منظما للمرأة ولجسدها، وحدًّا لحريتها وطموحاتها".[30]

والحقيقة إنَّ هذا العنف الممارس ضدَّها إنمَّا يفضي إلى حقيقة كثيرا ما سعت الثقافة البطريركية إلى ترسيخها، وهي حقيقة التَّميز، والتَّفاضل بين الرجل والمرأة، حقيقة مركزيته في مقابل تهميشها وإهانتها، ومهما تكن طرائق ممارسة العنف ضدَّها إلا أنَّها جميعها تعمل على إدانة المرأة والحطِّ من قدرها لتغدو مجرد كائن ضعيف تقع عليه جل اتهامات الرجل والمجتمع.

بهذه المعاني والدلالات تشحن تيمة العنف ضدَّ المرأة وتتغذى لتنمو، وينمو معها الاقتناع بأنَّها أصل الخطيئة لذلك وجب تهذيبها وتعنيفها، في حين أنَّ هذه الأخيرة هي مجرد أبعاد مضمرة تعمل المؤسسة الاجتماعية على تمريرها تحت عباءة تلك المسميات (التهذيب والتأديب وحفظ الشرف)، كما أنَّها تريد إثبات مزيد من الفروقات بين الرجل والمرأة، لذلك اعتُبر "التمييز في حد ذاته عنف، أو بالأحرى نوع من العنف الأساسي، لأنَّه لا يستهدف ملكية الآخر، بل يستهدف ماهية الآخر..."[31]

4- حجاب المرأة وحرية المعتقد:

يعدُّ موضوع الحجاب من الموضوعات الهامة، والخطيرة في الوقت نفسه، نظرا لتشعب الآراء حوله، وتضاربها في مميزاته، وخصائصه، وكيفية وضعه، ما أدى إلى اضطراب في تحديد مفهومه وتعدَّدت أبعاده، فالحجاب

في جوهره "نمط اجتماعي في اللِّباس ولكنه تحوّل ضمن قواعد الدِّين وأحكامه إلى هوية يتحقق داخلها الانتماء، ومن خلالها يصدق الإيمان ويترسخ".[32] فهو بهذا المعنى نمط اجتماعي يحمل بعدا دينيا، له أحكامه الخاصة وشروط لوضعه، ولاشك أنه نمط خاص بلباس المرأة، والحجاب كظاهرة اجتماعية، ليس حديث النشأة بل له جذور ضاربة في القدم، كما يوضح ذلك (قاسم أمين) "الحجاب الموجود عندنا ليس خاصا بنا، ولا أنَّ المسلمين هم الذين استحدثوه، ولكنه كان عادة معروفة عند كل الأمم تقريبا، ثم تلاشت طوعا لمقتضيات الاجتماع، وجريا على سنة التقدم والترقي، وهذه المسألة يلزم البحث فيها من جهتها الدينية والاجتماعية."[33]

ولعلَّ ما أثاره كتاب (قاسم أمين) من ضجّة إعلامية بين أوساط المسلمين، وجملة الاتهامات التي وقع فيها من خلال آرائه، إنَّما تشي بحساسية الموضوع من جهة وخطورته من جهة أخرى لذلك " فلا يمكن أن تكون الأحكام الخاصة بالضرورة الاجتماعية للحجاب النِّسائي، والمنسوبة تأويليا إلى النُّصوص المقدَّسة، سوى تبرير لوعي فردي يختفي في المقدس من أجل التستّر على وعي اجتماعي عام كانت وراء ظهوره الرغبات الفردية– الصريحة أو المقنعة– في الاستفراد بالمرأة وامتلاكها جسدا وروحا".[34] فتحوّل بذلك المفهوم من وسيلة لحفظ المرأة وصون كرامتها وعفتها إلى سلاح في يد الآخر (المجتمع/ الرجل) لإخضاعها وإذلالها وقطع صلتها بالعالم الخارجي، ومنعها من ممارسة دورها في الحياة، حيث نجد أنّ " مفهوم الحجاب ثلاثي الأبعاد، وهذه الأبعاد الثلاثة غالبا ما تتقاطع من جديد، فالبعد الأول هو بعد بصري viesuelle الحجب عن النظر؛ فجذر الفعل حجب يعني أخفى، والبعد الثاني هو خرافي spatial حجب بمعنى فَصَلَ أَيْ

عَيَّنَ حَدًّا، أقام عتبة، والبعد الثالث والأخير هو أخلاقي يعود لميدان المحارم.[35] إن هذا التقاطع بين الأبعاد الثلاثة يتم على مستوى نقطة واحدة مفادها الإخفاء، والمنع، والحجب، وهو ما يجعل منه ظاهرة في غاية الخطورة، بل إن الخوض فيه يصنّف في كثير من الأحيان ضمن الطابوهات التي يحترس كل من الوقوع فيها.

إنَّ تضارب وجهات النظر بالنسبة (لتيمة الحجاب)، وما نتج عنها من مفاهيم مغلوطة، هو ما أدى إلى نفور المرأة منه، ورفضها له اعتقادا منها؛ أنه سبب البلاء، والتَّهميش والإقصاء، وهذا ما جعل منه موضوعا هاما من الموضوعات التي تكررت في الكتابة النِّسائية، على الرغم من وجوب ارتدائه كما دعت إلى ذلك الآية الكريمة، في قوله تعالى: ﴿ وقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ من أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِيْنَ زِيْنَتَهُنَ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِيْنَ زِيْنَتِهِنَّ إِلَا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتَ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِيْنَ غَيرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الذِّيْنَ لم يَظْهَرُوا عَلَى عَورَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيَعْلَمَ مَا يُخْفِيْنَ مِنْ زِيْنَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى الله جَمِيْعًا أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون﴾[36]، فكانت الرّواية هي النَّوع الأجناسي الأنسب الذي وجدت فيه المرأة متنفّسا لكلّ تلك الضغوطات التي تحاصرها باسم الدين والعرف. ويطالعنا (نسق الحجاب) في كتابات المرأة العربية كنسق هام من أنساق الهيمنة الأبوية الذكورية، التي استمرت ردحا من الزمن، بحكم العادات والتقاليد، فيشكّل تيمة محورية تسهم في تطور الأحداث ونسج حبكتها، وهذا بعيدا عن الوازع الديني، فنجد الروائية الجزائرية(فضيلة الفاروق) –مثلا–

في روايتها (مزاج مراهقة) تحمِّله معان سلبية في مجتمع طغت عليه السلطة الذكورية الأبوية على وجود المرأة كإنسان له روح وجسد، ورغبات وطموحات، هذه النزعة السلطوية التي جعلت الرجل يختصر الحياة في وجوده، وفي تربعه على عرش الإنسانية التي هي في عرفه "شيء مذكر، فهو يعتبر نفسه يمثل الجنس الإنساني الحقيقي... أمّا هي في عرفه تمثل الجنس الآخر".[37] لذلك أباح لنفسه التعالي عليها، وتحقير دورها في الحياة، والنَّظر إليها على أنَّها أساس الخطيئة، وأنَّها جسد بلا روح، فحق له بذلك الاعتقاد امتلاكها، وإخضاعها لرغباته، وإحاطتها بهالة من الضبابية ،والعمل على إخفائها، وإنكار وجودها.

أما في روايتها (أقاليم الخوف)؛ فهي تحمله أبعادا أكثر خطورة من سابقته، إذ تعرضت له هذه المرة في علاقته بالمرأة نفسها، فاستطاعت أن تبين كيف يتحوّل الحجاب من رمز ديني له قدسيته في نفوس المسلمين إلى مجرد وسيلة لخداع الآخرين، وزرع الفتنة، وتمثل هذا الدَّور في شخصية (شهد) التي تُبْدِي عكس ما تخفي " فشهد لا تتوقّف عن إلقاء درسها الممل عن محاسن الإسلام، ودعوتي إلى اعتناقه، وهي كلّما دخلت علينا أحضرت لي قطعة من الثياب هدية، وتحرص أن تكون القطعة محتشمة، بكمين طويلين، وطول يغطي ما تحت الركبتين..."[38]. تحاول (شهد) جاهدة أن توهم الآخرين باستقامتها وتدينها، وتظن أن حجابها الذي يغطي سائر جسدها كفيل بتحسين صورتها، ولكن كل أفراد العائلة كانوا على دراية بألاعيبها، وبالرغم من ذلك فقد "أعطيت لشهد صلاحيات كثيرة في العائلة، فرأيها جدّ مهم قبل اتخاذ أي قرار بالنسبة لكل أفراد العائلة، على الرغم من أنها أنثى..."[39] وهذا ما يؤكد ما سبق ذكره من أن المجتمع يهتم بالظاهر، ويهمل الباطن، إذ

تحاول (شهد) أن تخفي لؤمها تحت عباءتها، فنالت بذلك احترام الجميع رغم مقتهم لها، في حين نجد أن حجاب أختها (شمائل) "هو الحجاب الذي ترتديه أغلب النساء، بنطلون وقميص عريض يغطي المؤخرة والفخذين ومنديل بسيط".[40] وعلى الرغم من ذلك فقد كانت امرأة قوية وإنسانة خلوقة " لذلك كانت تختلف مع شهد حول شكل الحجاب، فبالنسبة للأولى: الحجاب يعني سترة الجسد دون الدخول في التفاصيل، أما الثانية فتصرّ على أن الحجاب هو المعطف الواسع الذي ترتديه، والمنديل الذي يغطي نصف الجبين ونصف الذقن، وإخفاء القدمين بالجوارب..."[41] غير إنَّ تظاهر (شهد) بالأدب والاستقامة لم يمنعها من إخفاء بعض ملامح شخصيتها التي تطفو أحيانا دون وعي منها، فيرتفع صوتها حين لا تجد ما تقول " والله ما حدا حرف الدين غير أمثالك! أما شمائل فتظل محافظة على هدوئها وتجيبها ساخرة: يا ستي مدام حجابك شرعي ومطمنة فكرك شو دخلك فيني؟"[42] وهكذا يتضح حجاب (شهد) حاملا لبعدين أحدهما معلن يرفع مكانتها في المجتمع، والآخر مضمر تسعى إلى إخفائه عن الآخرين لأنَّه يمثل حقيقتها ونفاقها.

يتّضح – انطلاقا مما سبق – أنَّ قضايا الرواية النِّسائية العربية قد حققت نوعا من التَّميز، والخصوصية على مستوى القضايا، والمواضيع التي تطرحها، وهي في مجملها قضايا تخصُّ المرأة في علاقتها بالأنا، وبالآخر الذي تعدَّدت مظاهره، وتنوَّعت بين المجتمع والرجل والعرف. لتحاول من خلالها تحقيق هويتها، وتحقيق ذاتها، وحرِّيتها المنتهكة. فحظيت الرواية النِّسائية بمقروئية لم يشهد لها نظير من قبل، ودخلت في منافسة حادة مع ما يكتبه الرجل.

الهوامش:

1-فاطمة كدو، الخطاب النسائي ولغة الاختلاف، مقاربة للأنساق الثقافية، دار الأمان، الرباط، ط1 ، 2014، ص31.

[2]-شكري عزيز الماضي، إشكاليات النقد العربي الجديد، دار ورد الأردنية، ط2 ، 2008، ص.210

[3] – أمل التميمي، السيرة الذاتية النِّسائية في الأدب العربي المعاصر، المركز الثقافي العربي، ط1، 2005، ص54.

[4]-يمنى العيد، الرواية العربية، المتخيل وبنيته الفنية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2011، ص137.

[5]- عبد النور إدريس، النقد الأدبي النسائي والنوع الاجتماعي (الجندر) سلسلة دفاتر الاختلاف، ط1، 2011، ص34/33.

[6]- هويدا صالح، نقد الخطاب المفارق، السرد النسوي بين النظرية والتطبيق، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2014، ص54.

[7] – رشيدة بنمسعود، المرأة والكتابة، سؤال الخصوصية وبلاغة الاختلاف، إفريقيا الشرق، ط2، 2002، ص90.

[8]- فاطمة كدو، الخطاب النسائي ولغة الاختلاف، ص127.

[9] – المرجع نفسه، ص36.

[10] – أحمد بوغريي، الخطاب الروائي النسائي في المغرب العربي، مقاربة في التيمات، أطروحة دكتوراه بإشراف: زهور كرام، جامعة محمد الخامس، أكدال، المملكة المغربية، 2007، ص.51

[11] – نقد الخطاب المفارق، ص166.

[12]- عبد الله الغذامي، المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2006، ص128.

13- هويدا صالح، نقد الخطاب المفارق، ص 174/173.

14-مجموعة من الكاتبات والكتاب، الكتابة النسائية، التخييل والتلقي، اتحاد كتاب المغرب، ط1، 2006، ص.199

15- عبد النور إدريس، التمثلات الثقافية للجسد الأنثوي، الرواية النسائية أنموذجا، سلسلة دفاتر الاختلاف، ط1، 2015،ص.84
16- الأخضر بن السائح، الرواية النسائية المغاربية والكتابة بشروط الجسد، مجلة الخطاب، ع4، ص84 بتصرف.
17- مجموعة من الكاتبات والكتاب، الكتابة النسائية، التخييل والتلقي، ص203.
18- هويدا صالح ، نقد الخطاب المفارق، ص 161.
19- مجموعة من الكاتبات والكتاب، الكتابة النسائية، التخييل والتلقي، ص203.
20- محمد نور الدين أفاية، الهوية والاختلاف في المرأة والكتابة والهامش، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1988، ص45/44.
21- مجموعة من الكاتبات والكتاب، الكتابة النسائية، التخييل والتلقي، ص205.
22-المرجع نفسه، ص 202 ومابعدها.
23- فريد الزاهي، النَّص والجسد والتأويل، - بتصرف-إفريقيا الشرق، المغرب، ط 2003، ص25.
24- المرجع نفسه، ص25.
25- محسن جاسم الموسوي، النظرية والنقد الثقافي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2005، ص.129
26- رشيدة بنمسعود، جمالية السرد النسائي، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ط1، 2006، ص122.
27- إبراهيم الحيدري، سوسيولوجيا العنف، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط1، 2015، ص.110
28- المرجع نفسه، ص98.
29- رجاء بن سلامة، بنيان الفحولة، أبحاث في المذكر والمؤنث، دار بترا للنشر والتوزيع، ط1، 2005، ص101.
30- المرجع نفسه، ص101.
31- المرجع نفسه، ص86.
32- سعيد بنكراد، وهج المعاني، سيميائيات الأنساق الثقافية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2013، ص09.

33- تحرير المرأة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، دط، ص.38
34- سعيد بنكراد، وهج المعاني، ص18.
35- فاطمة المرنيسي، الحريم السياسي، البنى والنساء، تر: عبد الهادي عباسي، دار الحصار، ط2، 1993، ص119.
36- القرآن الكريم، سورة النور، الآية31، رواية ورش عن نافع، بيت القرآن للطباعة والنشر، ط3، 1431ه/2010م.
37-سيمون دي بوفوار، الجنس الآخر، تر: مجموعة من الأساتذة، دار أسامة، دمشق، سوريا، دط، ص04.
38- فضيلة الفاروق، أقاليم الخوف، رياض الريس للكتب والنشر، ط1، 2010، ص13.
39- المصدر نفسه، ص 12.
40- المصدر نفسه، ص17.
41- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
42- المصدر نفسه، ص18.